الدماغ في القرآن محل الإدراك ومنبع والسلوك

د. محمد دودح
باحث علمي في هيئة الإعجاز العلمي في الكتاب والسنة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

إن الدماغ أو المخ Brain هو موضع الملكات المميزة للإنسان من قدرات فكرية وذهنية وقيم إنسانية وليس القلب كما كان يُتوهم سابقاً، وإن شبهة مخالفة القرآن الكريم لتلك الحقيقة لا أساس لها وتتطلب العلم بأساليب البيان في اللغة التي نزل بها، فلم يقل الكتاب العزيز لا تصريحاً ولا تلميحاً أن القلب هو محل العقل، لكنها قضية حيرت الفلاسفة قديما أما المفسرون فقد بينوا أن القلب "مَثَل" من باب التعبير عن المعنوي بحسي لتحقيق غاية التبيين بالتصوير، ويسجل التاريخ للأعلام التوفيق في السلامة من الوقوف عند ظاهر اللفظ بالاحتياط والتحفظ في بيان المحل، فسلم من تركه بلا تعيين وتألق من وظف شهادة الواقع وأخذ بها في الترجيح معتبراً فعل الخالق تفسيرًا لقوله، قال ابن عاشور (رحمهم الله جميعاً): "أطلقت القلوب على.. العقل على وجه المجاز المرسل لأن القلب هو مُفيض الدم - مادة الحياة - على الأعضاء الرئيسية وأهمها الدماغ الذي هو عضو العقل، ولذلك قال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنّهَا لاَ تَعْمَى الأبْصَارُ وَلَـَكِن تَعْمَىَ الْقُلُوبُ الّتِي فِي الصّدُورِ﴾ الحج ٤٦، وإنما آلة العقل هي الدماغ ولكن الكلام جرَى أوله على متعارف أهل اللغة ثم أجري عقب ذلك على الحقيقة العلمية فقال: ﴿يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ فأشار إلى أن القلوب هي العقل"[١]، وقال بمثل هذا التأويل الجمع الغفير، قال القاسمي: "المعنى: ليس الخلل في (حواسهم) وإنما في عقولهم بإتباع الهوى والانهماك في الغفلة، وفائدة ذكر الصدور هو التأكيد.. لتقرير معنى المجاز"[٢]، وقال النيسابوري: ﴿وَلَـَكِن تَعْمَىَ الْقُلُوبُ الّتِي فِي الصّدُورِ﴾: في هذا التصوير زيادة التمكين والتقرير لغرابة نسبة العمى إلى القلب.. والمعنى.. أن أبصارهم صحيحة سالمة لا عمى بها وإنما العمى بقلوبهم، أو لا تعتدوا بعمى الأبصار وإن فرض لأنه ليس بعمى بالإضافة إلى عمى القلوب، وزعم بعضهم أن في الآية إبطالا لقول من جعل محل (الإيمان أو) الكفر الدماغ وليس بقوي"[٣]، وقال الأصفهاني: "قال بعض الحكماء حيثما ذكر الله تعالى القلب فإشارة إلى العقل والعلم، نحو ﴿إِنّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىَ لِمَن كَانَ لَـهُ قَلْبٌ﴾، وحيثما ذكر الصدر فإشارة إلى ذلك.. وقوله ﴿رَبّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ فسؤال لإصلاح قواه، وكذلك قوله ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مّؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى اشتفائهم، وقوله ﴿وَلَـَكِن تَعْمَىَ الْقُلُوبُ الّتِي فِي الصّدُورِ﴾؛ أي العقول"[٤]، وقال أيضاً: "الرأس أشرف الأعضاء الإنسانية.. و(العقل من الإنسان) بمنزلة القلب من البدن"[٥]، وفي قوله ﴿إِنّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىَ لِمَن كَانَ لَـهُ قَلْبٌ﴾؛ قال ابن القيم: "لم يرد بالقلب هنا مضغة اللحم المشتركة بين الحيوانات"[٦]، وفي قوله ﴿وَاعْلَمُوَاْ أَنّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾؛ قال الرازي: "كأنه قال بادروا إلى الأعمال الصالحة ولا تعتمدوا على ما يقع في قلوبكم من توقع طول البقاء فإن ذلك غير موثوق.. قال مجاهد المراد من القلب هاهنا العقل، فكان المعنى أنه يحول بين المرء وقلبه، والمعنى فبادروا إلى الأعمال وأنتم تعقلون فإنكم لا تؤمنون زوال العقول التي عند ارتفاعها يبطل التكليف، وجعل القلب كناية عن العقل جائز كما قال تعالى: ﴿إِنّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىَ لِمَن كَانَ لَـهُ قَلْبٌ﴾؛ أي لمن كان له عقل"[٧]، وسلبهم القلوب وهي في صدورهم فعلاً يتفق مع كونها تمثيل وتشبيه للقوى العقلية الهادية إلى الإيمان ونجاة الإنسان بالقلب السليم في البدن غير المريض بالشبهات أو الاغترار والمكابرة.

وقد يرد لفظ "القلب" في الأثر للتصوير والتمثيل كما هو في القرآن، ومنه الحديث: (القلوب أربعة، قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مصفح) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ج ٣ص١٧ والطبراني في الصغير عن أبي سعيد الخدري؛ قال ابن منظور: "في الحديث القلوب أربعة.. إنما هو تمثيل"[٨]، ومثله الحديث: "(قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء).. تمثيل لسرعة تقلب القلوب وإن ذلك أمر معقود بمشيئته"[٩]، والعبرة في الدين هي في معرفة الله والانتباه للمصير وحضور العقل

واستعماله لبلوغ الإيمان واليقين، أو الغفلة بإهماله وتغييبه والعناد، "وفي حديث دعاء الانتباه (الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور)؛ سمي النوم موتا لأنه يزول معه العقل والحركة تمثيلا وتشبيها لا تحقيقا"[١٠].

فكما ترى يصرف الأجلاء لفظ "القلب" عن ظاهر دلالته الحسية المعروفة إلى معانٍ مثل ذات الإنسان وحقيقته وروحه وضميره وسلامة اعتقاده المحركة لأفعاله، يقول أبو حامد الغزالي: "وحيث ورد في القرآن والسنة لفظ القلب فالمراد به المعنى الذي يفقه من الإنسان ويعرف حقيقة الأشياء وقد يكنى عنه بالقلب الذي في الصدر"[١١]، وفي قوله تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ ق ٣٧؛ يؤصل إمام البلاغة عبد القاهر الجرجاني التعبير بلفظ القلب من باب التشبيه والتمثيل فيقول: "جعل الذي لا يعي ولا يسمع ولا ينظر ولا يتفكر كأنه قد عُدِمَ القلب من حيث عدم الانتفاع به (أي مات).. كما جُعل الذي لا ينتفع ببصره وسمعه ولا يفكر فيما يؤديان إليه ولا يحصل من رؤية ما يرى وسماع ما يسمع على فائدة بمنزلة من لا سمع له ولا بصر، فأما تفسير من يفسره على أنه بمعنى من كان له عقل.. كأن القلب اسم للعقل.. فمحال باطل لأنه يؤدي إلى إبطال الغرض من الآية وإلى تحريف الكلام عن صورته وإزالة المعنى عن جهته، وذاك أن المراد به الحث على النظر والتقريع على تركه وذم من يخل به ويغفل عنه.. بأن يكون قد جعل من لا يفقه بقلبه ولا ينظر ولا يتفكر كأنه ليس بذي قلب، كما يجعله كأنه جماد وكأنه ميت لا يشعر ولا يحس..، وفسر العمى والصمم والموت في صفة من يوصف بالجهالة على مجرد الجهل، وأجرى جميع ذلك عل الظاهر فاعرفه، ومن عادة قوم ممن يتعاطى التفسير بغير علم أن يتوهموا أبدًا في الألفاظ الموضوعة على المجاز والتمثيل أنها على ظواهرها فيفسدوا المعنى بذلك ويبطلوا الغرض ويمنعوا أنفسهم والسامع منهم العلم بموضع البلاغة"[١٢].

دعني أحاول توضيح ما انتهى إليه الأعلام بمثال يجسد قضية التصوير والتمثيل في القرآن الكريم للتبيين، فقد يعبر القرآن عن الحقيقة بروائع تصويرية تُجسد المشاعر والمعنويات وتنطِق فيها الجمادات في مشاهد تثير المخيلة لتتصور المواقف كأنها وليدة الساعة فيعايشها كل إنسان كأنه فيها، تأمل كيف يُجَسِّد القرآن حال قوم إبراهيم عليه السلام عندما رجعوا عن اعترافهم بحجته: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ الأنبياء ٦٥، وتحديد الانتكاس أنه ﴿عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ قاطع بانقلاب الهيئة لتُلامس الرأسُ الأرضَ وترتفع الأرجلُ عالياً؛ هكذا!، مشهد خزي لا يحسدهم عليه أحد تعرت فيه العورات فترى كل واحد بهيئة مهتز آيل للسقوط يحاول ستر عورته فلا يستطيع ويحاول حفظ توازنه فلا يتمكن، وهذا لا يعارض الحقيقة لأنه قائم على التمثيل أو قل "ضرب المَثَل" وفق تعبير القرآن الكريم، قال أبو السعود: "شبه عودهم إلى الباطل بصيرورة أسفل الشيء أعلاه"[١٣]، وقال الشوكاني: "أي رجعوا إلى جهلهم وعنادهم، شبه سبحانه عودهم إلى الباطل بصيرورة أسفل الشيء أعلاه، وقيل المعنى أنهم طأطئوا رءوسهم خجلة من إبراهيم وهو ضعيف لأنه لم يقل (نَكَسُوا رُءُوسَهُم) بفتح الكاف وإسناد الفعل إليهم حتى يصح"[١٤]، وقال النسفي: "أي استقاموا حين رجعوا إلى أنفسهم.. ثم انقلبوا عن تلك الحالة فأخذوا في المجادلة بالباطل والمكابرة"[١٥]، وقال الطبري: "معنى ذلك ثم رجعوا عما عرفوا من حجة إبراهيم.. لأن نكس الشيء على رأسه قلبه على رأسه وتصيير أعلاه أسفله، ومعلوم أن القوم لم يقلبوا على رءوس أنفسهم"[١٦]، فالغرض بيان مضمون ولا يُراد ظاهر الحسي الممثل به ولا ضرورة للجدل حول تحققه من عدمه إذ ليس إلا صورة تجسد حقيقة معنوية، وبتجسيد المعنويات إذن في مشاهد حسية يُمكن تأمل ما التبس فهمه فإذا هو عجيبة في البيان وغاية في الإحكام.

والإنسان يتميز بملكات تُبلغه أقصى درجات الإيمان بالله عبَّروا عنها بالعقل؛ كقوة التمييز والفكر والإدراك والاستنتاج والضبط والبيان، وإذا لم يوظف الإنسان ملكاته تلك لبلوغ اليقين بالله لا يُمَيَّز عن الحيوان؛ أو قل مات، وقد نسب القرآن تلك الصفات إلى ذوات كالألباب؛ غاية الآكل للثمار ذوات الألباب وخلاصتها، أو إلى القلوب منبع حياة الأجساد؛ مما دفع الأعلام إلى تأويل تلك الذوات بالعقل والفهم، أو حملها على التشبيه والتمثيل خاصة مع التعبير عن الملكات الإنسانية بألفاظ أخرى مثل الأفئدة والصدور والحجر والأحلام والنهى والرشد، وتحمل هذه الألفاظ مضامين كالمكانة والأساس والمقصد المطلوب وحقيقة الذات والضابط المانع للانفلات والخفاء، وهكذا تنوع التعبير عن الملكات الإنسانية مع تفرد كل منها بدلالة خاصة وتنوع الجانب الدلالي في كل سياق، وعدم الاقتصار على لفظ "القلب" في التعبير عنها قرينة صارفة إلى التشبيه والتمثيل؛ تماما مثل لفظ "الألباب"، فالثمرة الفاسدة اللب أو التي بلا لب يؤكل لا خير فيها ولا نفع منها؛ كذلك من لم يوظف ما ميزه الله به عن البهائم.

قال ابن منظور: "لب كل شيء و لبابه خالصه.. وقد غلب اللب على ما يؤكل داخله ويرمى خارجه من الثمر ولب الجوز واللوز ونحوهما ما في جوفه.. ولب النخلة قلبها.. ولباب القمح ولباب الفستق ولباب الإبل خيارها.. ولب كل شيء نفسه وحقيقته.. واللب العقل والجمع ألباب.. ولبيب عاقل ذو لب.. والأنثى لبيبة"[١٧].

وقال الرازي: "أما قوله تعالى: ﴿يَأُوْلِي الألْبَابِ﴾؛ فاعلم أن لباب الشيء ولبه هو الخالص منه، ثم اختلفوا بعد ذلك، فقال بعضهم: إنه اسم للعقل لأنه أشرف ما في الإنسان، والذي تميز به الإنسان عن البهائم.. واستعد به للتمييز..، وقال آخرون: أنه في الأصل اسم للقلب.. والقلب قد يجعل كناية عن العقل..، فكذا هاهنا جعل اللب كناية عن العقل، فقوله: ﴿يَأُوْلِي الألْبَابِ﴾ معناه: يا أولي العقول"[١٨]، وقال القنوجي: "القلب له معنيان أحدهما اللحم الصنوبري المودع في الجانب الأيسر من الصدور..، والحيوانات كلها متشاركة في هذا النوع من القلب..، وثانيهما لطيفة ربانية نورانية.. يتعلق بالقلب بالمعنى الأول، وهو المخاطب والمكلف وبه يثاب الإنسان ويعاقب"[١٩]، وقالوا: "العقل الحجر والنهى ضد الحمق..، (و) رجل عاقل.. الجامع لأمره ورأيه، مأخوذ من عقلت البعير إذا جمعت قوائمه، وقيل العاقل الذي يحبس نفسه ويردها عن هواها..، والعقل التثبت في الأمور، والعقل القلب، والقلب العقل"[٢٠]، و"يستعار العمى للقلب كناية عن الضلالة، والعلاقة عدم الاهتداء"[٢١]، و"الصدور يكنى بها عن القلوب"[٢٢]، والحجر بالكسر العقل واللب لإمساكه ومنعه وإحاطته بالتمييز..، وفي التنزيل ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾"[٢٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النّهَىَ﴾؛ أي "لذوي العقول الناهية عن إتباع الباطل وارتكاب القبائح"[٢٤]، والحلم خلق ضابط للسلوك وبهذا تلتقي دلالة اللفظ مع الحجر والنهى، لذا: "قد يُكنى عن العقول بالأحلام.. قال الله تعالى ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلاَمُهُمْ بِهَـٰذَآ﴾"[٢٥]، وهكذا جاء التعبير عن الملكات الإنسانية تصويرياً بألفاظ متباينة مستعملة لدلالات أخرى لعلاقة بينهما، وهي جميعاً سواء كانت أسماء صفات أو ذوات قائمة على التصوير والتمثيل لبيان صفات تُميز الإنسان عن الحيوان.

وقد لُوحظ منذ القدم أن المضروب في قلبه يموت مما رسَّخ الاعتقاد أن القلب منبع الحياة وبتلفه يهلك الجسد، وحَمَلَ الإرث اللغوي من أمثال واستخدامات مجازية ما يؤكد ضرورته لحياة سائر الأعضاء، وتؤثر الانفعالات النفسية على القلب فتتسارع ضرباته أو تهدأ، ولذا نشأ التوهم بأنه محل الفكر ومرجع الحواس الخمس خاصة أن دور الدماغ لم يكن قد تحدد بعد، وخلال الثورة العلمية المحمومة لكشف المجهول في القرون الثلاثة الأخيرة رُفعت الأستار شيئا فشيئا وانقشعت الظلمات واتضح بجلاء أن الدماغ هو محل الانفعالات التي يتأثر بها القلب، وإليه تنتهي كافة المعلومات المستمدة من الحواس والتي يقوم بتحليلها قبل اتخاذ القرار، وتبين أن شخصية الإنسان ترجع أساساً إلى منطقة الناصية أو مقدم الرأس حيث يقع الفص الجبهي **Frontal lobe** في المخ، وتحديدا في الجزء الأمامي منه **Prefrontal area** حيث يقع مركز القيادة وتتخذ كافة القرارات، وتتبعه من الأمام للخلف منطقة صياغة الكلام **Broca's area** ثم منطقة الحركة **Motor area** بحيث إذا اتخذ قرار في مركز القيادة يتم تنفيذه على الفور بهيئة قول أو فعل، كما لو كانت مكاتب السكرتارية مرتبة قرباً وفق درجة الاستنفار بجانب حجرة المسئول تنتظر القرار، ووفق التأهيل الفطري لا يتخذ القرار عشوائيا وإنما بناء على تحليل المدركات الحسية وحصيلة الخبرات المختزنة والميول النفسية والعاطفية، لذا تسمى منطقة اتخاذ القرار تلك حارس البوابة **Gatekeeper**، هذا هو الترتيب الداخلي للناصية مركز القيادة المسئول عن اتخاذ القرار عند الإنسان.

والعجيب أن منطقة الناصية بعينها هي التي تُختار في القرآن في مثال يكشف دورها لتقع عليها المؤاخذة وحدها دون سائر الأعضاء وتُرتب فيها الأقوال الكاذبة قبل الأفعال الخاطئة بنفس الترتيب المخبوء داخل الدماغ، قال تعالى: ﴿كَلاّ لَئِن لّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنّاصِيَةِ. نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ العلق ١٥و١٦، وبهذا الحسم يسجل القرآن السبق في حل معضلة محل الفكر أو العقل؛ القلب أم الدماغ؟ والتي حيرت الألباب قبل توفر الإمكانيات لمعاينة دلائل الوحي، والقطع في القرآن في نسبة التمييز وضبط السلوك إلى منطقة مقدم الرأس بتوجيه المؤاخذة إلى الناصية دون سائر الأعضاء يؤكد بداهة استخدام لفظ القلوب في القرآن على سبيل التصوير والتمثيل ويدفع قطعا التوهم بأن القلوب التي يشترك فيها الإنسان مع الحيوان هي محل التمييز والسلوك الاختياري، خاصة مع جعل منطقة الناصية من الرأس هي محل التمييز والسلوك الغريزي في سائر الحيوان بما يؤهل كل منه بقدرات تناسب بيئته وتحفظ سلامة الفرد والجماعة، يقول العلي القدير: ﴿مّا مِن دَآبّةٍ إِلاّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَآ إِنّ رَبّي عَلَىَ صِرَاطٍ مّسْتَقِيمٍ﴾ هود ٥٦، ومن الدلائل المبهرة على أن القرآن ليس بقول بشر ويستحيل أن يخالف الحقائق أن جميع الوظائف الإدراكية

والسلوكية سواء وردت دالة على الوظيفة كالسمع والبصر أو مسلوبة الوظيفة في حق الكفار لأنهم عطلوها كما في قوله ﴿صُمٌ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾؛ جميعها جاءت مرتبة وفق الترتيب المخبوء بالدماغ بما فيها أعضاء الوضوء رغم تعلق الموضوع بالأحكام مما يقطع بأن هذا الكتاب الكريم هو كلام الخالق سبحانه وتعالى الذي يعلم وحده بخفايا ما خلق.

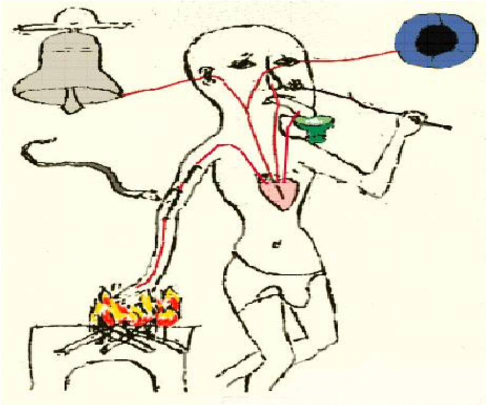

تسجيل لتوهم انتهاء كل الحواس الخمس إلى القلب يرجع لبداية عصر النهضة ويشهد للقرآن بالسبق.

وفي قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَـٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ الحج ٤٦، ظاهر التعبير أنه لو كانت لهم قلوب فعلا وتأملوا بأبصارهم مظاهر القدرة والإبداع في الخلق – كما يعني هنا تعبير السير في الأرض – لعقلوا بديع صنع الخالق وقدرته، ولكنهم بلا قلوب أصلا في الصدور أي موتى فلن يعقلوا إذن حتى ولو نظروا في الخلق، وهذا النفي يعني أن ﴿الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ تعبير عن بصائر التمييز أو العقل وفق مصطلح المفسرين لأنهم يمتلكون تلك القلوب فعلاً، وبهذا قد جعل القرآن الفاقدين لبصائر التمييز موتى كمن تعطلت قلوبهم التي في الصدور، ووصف القرآن للكفار في مواضع بأنهم كالحيوانِ رغم اشتراكهم معه في امتلاك تلك القلوب التي في الصدور يؤكد أن لفظ "القلوب" تمثيل للملكات الإنسانية بياناً للأهمية والمكانةِ لا المكان وتجسيدا للمعنوي بحسي مألوف، وتلاحظ أن القرآن لم ينسب القلوب للحيوان قط مع أنه يمتلكها حقيقةً مما يؤكد أنها مجاز وتمثيل كما قال الأجلاء، ويرجع مصدر الشبهة إلى نسبة التعقل للقلوب وتعيين محلها بالعبارة (التي في الصدور) مما يوهم أنها محل العقل، ولكن القرائن الصارفة لم تخف عليهم مع التسليم ابتداءً أن القلوب عند الإنسان والحيوان سواء هي في الصدور، ومع صرف لفظ "القلوب" إلى معانٍ دقيقةٍ تناسب كل مقام مثل البصيرة؛ قالوا بأن تعيين المحل لتأكيد نسبة العمى، قال ابن منظور: "كلما ذكر الله جل وعز العمى في كتابه فذمه فإنما يريد عمى القلب، قال تعالى ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَـٰكِن تَعْمَىٰ الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾، وقوله تعالى ﴿صُمٌ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ هو على المثل، جعلهم في ترك العمل بما يبصرون ووعي ما يسمعون بمنزلة الموتى"[٢٦]، "وقوله عز وجل: ﴿وَلَـٰكِن تَعْمَىٰ الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾؛ والقلب لا يكون إلا في الصدر، إنما جرى هذا على التوكيد، كما قال عز وجل: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم﴾؛ والقول لا يكون إلا بالفم، لكنه أكد بذلك"[٢٧]، وظاهر التعبير ينفي ابتداء بالمثل أن تكون لهم آذان رغم وجودها الفعلي وإلا لوعوا واستجابوا لبينات الحق وفق أقصى ما يؤديه فعل السمع من معنى في السياق، فجعل تعطيل وظيفتها كفقدانها، ورفع الوصف بالعمى عن الأبصار ونسبته للقلوب يعنى أن المراد العمى المعنوي عن الحق وإن كان صاحبه سليم العينين، وأن المرض المعنوي لبصائر التمييز كمن أصيب قلبه فهلك بدنه، وبهذا تكون البصيرة في القرآن هي القيمة الحقيقية للإنسان المميزة له والقلوب والأعين والآذان مجرد أدوات.

إن القوى الإنسانية ترجع جميعاً في الأساس إلى القلب لأنه المتعلق بالحياة وبتوقفه عن العمل تهلك سائر أعضاء الجسد، لذا كانت ﴿الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ خير مثال لكينونة الإنسان ومكنونه الذي لا يطلع عليه إلا الله تعالى، خاصة أن التفكر أو التعقل أساسه القلب باعتباره أساس الحياة وإن كانت القوى العقلية تنتهي جميعاً إلى الدماغ، قال ابن القيم: "المسألة التي اختلف فيها الفقهاء: هل العقل في القلب أو في الدماغ؟ على قولين حكيا روايتين عن الإمام أحمد، والتحقيق أن أصله ومادته من القلب وينتهي إلى الدماغ.. (لأن) الرجل يضرب في رأسه فيزول عقله ولولا أن العقل في الرأس لما زال.. فذلك من أعظم آيات الله وأدلته وقدرته وحكمته؛ كيف ترتسم صورة السموات والأرض والبحار والشمس والقمر والأقاليم والممالك والأمم في هذا المحل الصغير!، والإنسان يحفظ كتبا كثيرة جدا وعلوما شتى متعددة وصنائع مختلفة فترتسم كلها في هذا الجزء الصغير من غير أن يختلط بعض هذه الصور ببعض!"[٢٨]، وهكذا وردت تصاريف لفظ القلب في القرآن ١٣٢ مرة ولا تجد فيها نصاً

واحداً قطعي الدلالة على أنه محل الفكر واتخاذ القرار وضبط السلوك، وإنما هو "مَثَل"؛ تصوير للمعنوي بمألوف حسي للتبيين لوجوه شبه كالمكانة لا المكان، وإلا فالقلب العضوي يشترك فيه الإنسان مع الحيوان؛ فانتبه!.

قال الزركشي: "وضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور كثيرة..، (منها) ترتيب المراد للعقل وتصويره في صورة المحسوس..، قال تعالى: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ﴾..، وقال ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلاّ الْعَالِمُونَ﴾..، والمتمثل كالصانع الذي يقدر صناعته كالخياط يقدر الثوب على قامة المخيط"[٢٩]، وقال ابن تيمية: "وهذه الأمثال اللغوية أنواع موجود في القرآن منها أجناسها، وهي معلنة ببلاغة لفظه ونظمه وبراعة بيانه اللفظي، والذين يتكلمون في علم البيان وإعجاز القرآن يتكلمون في مثل هذا..، (و) الأمثال المضروبة في القرآن منها ما يصرح فيه بتسميته "مَثَلاً"، ومنها ما لا يسمى بذلك..، (وكمثال) جعل الزوج لزوجه لباسا..، قال تعالى ﴿هُنّ لِبَاسٌ لّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لّهُنّ﴾ فسماهن لباسا..، وجعل التقوى لباسًا على طريق التمثيل والتشبيه؛ قال تعالى ﴿وَلِبَاسُ التّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ﴾، وقوله ﴿وَعَلّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لّكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مّن بَأْسِكُمْ﴾ يعني به الدرع، و(في) قوله ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مّطْمَئِنّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مّن كُلّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾؛ جعل الجوع والخوف لباسا على التجسيم والتشبيه تصويرا له"[٣٠]، وقال الجرجاني: "ومعلوم أن سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة.. كالفضة والذهب يصاغ منهما خاتم أو سوار، فكما أن محالا إذا أنت أردت النظر في صوغ الخاتم وفي جودة العمل ورداءته أن ينظر إلى الفضة الحاملة تلك الصورة أو الذهب.. كذلك محال إذا أردت أن تعرف مكان الفضل والمزية في الكلام أن تنظر في مجرد معناه (الحسي).. وهذا قاطع فاعرفه"[٣١]، "وليس العبارة عن ذلك بالصورة شيئا نحن ابتدأناه فينكره منكر بل هو مستعمل مشهور"[٣٢]، و"ليست الاستعارة نقل اسم عن شيء إلى شيء ولكنها إدعاء معنى الاسم لشيء"[٣٣]، والكناية في مصطلح البلغاء هي التعبير بالشيء وإرادة لازمه، يعني عدول عن التصريح إلى الإشارة والتلميح، ويضربون مثلاً بمدح الرجل زوجته التي تظلله والبادية الإشراق في عينه كالشمس قائلاً: "شمس تظللني من الشمس"، والتعريض عدول عن التصريح لأغراض كالتلطف، فحكمةً عامةً مثل "خير الناس أنفعهم للناس" قد تكون تعريضاً يقال في حضور شخص بعينه أصابه الكسل كي ينشط في فعل الخير، ألا تر معي أن نفس الدعوة لفعل الخير مع التلطف في التعبير هي مضمون الأثر: (ألا إن في الجسد مضغة؛ إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)، أرى أن التعبير يكاد ينطق قائلاً بالتمثيل للإنسان بالجسد وللنيات والبصائر الخفية بالقلب.

ومجمل القول أن المراد بلفظ "القلب" في القرآن هو التمييز المبلغ للإيمان، فهو ما يميز الإنسان عن الحيوان وهو مناط التكليف، وهو ما ثبت بيقين أن محله الدماغ؛ مما يصرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى لب الشيء وحقيقته وجوهره، والقلب العضوي يجسد المعنى للتبيين من باب التصوير والتمثيل، قال كثير من الأعلام: "وقد يعبر بالقلب عن العقل، قال الفراء في قوله تعالى ﴿إِنّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىَ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾؛ أي عقل، قال الفراء وجائز في العربية أن تقول ما لك قلب وما قلبك معك تقول ما عقلك معك وأين ذهب قلبك أي أين ذهب عقلك، وقال غيره لمن كان له قلب؛ أي تفهم وتدبر"[٣٤]، و"التمييز يقال للقوة التي في الدماغ وبها تستنبط المعاني"[٣٥]، و"الدماغ مسكن العقل"[٣٦]، وقال ياقوت الحموي: "إذا فسد الدماغ فسدت الحواس"[٣٧]، وقال ابن تيمية (رحمهم الله أجمعين): "لفظ القلب قد يراد به المضغة الصنوبرية الشكل التي في الجانب الأيسر من البدن.. كما في الصحيحين عن النبي أن (في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد فإن فسدت فسد لها سائر الجسد)، وقد يراد بالقلب باطن الإنسان مطلقا، فإن قلب الشيء باطنه كقلب الحنطة واللوزة والجوزة ونحو ذلك.. وعلى هذا فإذا أريد بالقلب هذا فالعقل متعلق بدماغه.. ولهذا قيل إن العقل في الدماغ كما يقوله كثير من الأطباء، ونقل ذلك عن الإمام أحمد"[٣٨].

فإذا كان هذا شأن أعلام التأويل أنفسهم قبل تجلي الحقيقة؛ ألا يسعنا ونحن نعاين الحقيقة ما وسعهم من حمل لفظ "القلب" في القرآن والحديث على المعاني التصويرية؟! خاصة مع بيان القرآن لما تحققنا منه اليوم من أن العمليات الإدراكية والسلوكية المميزة للشخصية محلها منطقة الناصية من الرأس، ومع ترتيب الوظائف جميعا بما يطابق ترتيبها المخبوء بالدماغ، ومع انتشار عمليات نقل القلب بل وإمكان العيش بقلب صناعي بدون تأثر الشخصية وفقدان التمييز على الإطلاق، بينما لا يوجد في المصطلح الطبي إلى اليوم شيء اسمه نقل الدماغ، ولو حدث مستقبلا فلن يكون إلا تأكيدا لما سبق وقرره القرآن الكريم لتتجلى البينة على التنزيل.

[١] التحرير والتنوير لابن عاشور ج١٧ص٢٨٨.
[٢] محاسن التأويل للقاسمي م٧ج١٢ص٣٣.
[٣] غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري ج٥ص٨٨.
[٤] المفردات في غريب القرآن للأصفهاني ج١ص٢٧٦.
[٥] المفردات في غريب القرآن للأصفهاني ج١ص٤١١.
[٦] مفتاح دار السعادة ج١ص١٩٥.
[٧] تفسير الرازي ج١ص٥٠٣.
[٨] لسان العرب لابن منظور ج٣ص١١٩.
[٩] الفائق في غريب الحديث ج٢ص٢٨٢.
[١٠] لسان العرب لابن منظور ج٢ص٩٢.
[١١] الإحياء مع شرحه للزبيدي ج ٨ص٣٦٨.
[١٢] دلائل الإعجاز للجرجاني ج١ص٢٣٤.
[١٣] تفسير أبو السعود ج٦ص٧٥.
[١٤] فتح القدير للشوكاني ج٣ص٤١٤.
[١٥] تفسير النسفي ج٣ص٨٥.
[١٦] تفسير الطبري ج١٧ص٤١و٤٢.
[١٧] لسان العرب لابن منظور ج١ص٧٢٩.
[١٨] تفسير الرازي ج١ص٥٠٣.
[١٩] أبجد العلوم للقنوجي ج٢ص٣٧٧.
[٢٠] لسان العرب لابن منظور ج١١ص٤٥٨.
[٢١] المصباح المنير ج٢ص٤٣١.
[٢٢] المصباح المنير ج١ص٢١٢.
[٢٣] لسان العرب لابن منظور ج٤ص١٧٠.
[٢٤] تفسير البيضاوي ج٤ص٥٦.
[٢٥] غريب الحديث لابن قتيبة ج١ص٣٣٢.
[٢٦] لسان العرب لابن منظور ج١٥ص٩٧.
[٢٧] لسان العرب لابن منظور ج٤ص٤٤٦.
[٢٨] التبيان في أقسام القرآن لابن القيم ج١ ص٢٥٦.
[٢٩] البرهان في علوم القرآن للزركشي ج١ص٤٨٦.
[٣٠] كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية ج١٤ص٦٤.
[٣١] دلائل الإعجاز للجرجاني ج١ص١٩٧.
[٣٢] دلائل الإعجاز للجرجاني ج١ص٣٦٩.
[٣٣] دلائل الإعجاز للجرجاني ج١ص٣١٨.
[٣٤] لسان العرب ج١ص٦٨٧.
[٣٥] التعاريف ج١ص٢٠٦.
[٣٦] فضائح الباطنية ج١ص٦١.
[٣٧] معجم البلدان لياقوت الحموي ج١/ص٤٨٣.
[٣٨] مجموع الفتاوى لابن تيمية ج٩ص٣٠٤.